العـــــاذلـــة

(قراءة في شعر الصعاليك من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي)

الباحثة: مريم حسين الحارثي

ماجستير قسم اللغة العربية كلية الاداب جامعة الطائف

المقدمة

كشفت النصوص الشعرية عند الصعاليك ، عن فاجعة طرد الصعلوك من عالم القبيلة ؛ نافذاً من عالمه المادي إلى تجلية الموقف المأزوم بينه وبين قبيلته من خلال النص العذلي. لذا لا يمكننا أن نُغفل أثر الذات الشاعرة في إعادة إنتاج هذه الحادثة المؤلمة وتأهيلها وتلوينها بألوان النفس ؛ متخذة من العاذلة وسيلة يخلق توجيهاتها ورؤاها في إطارها ومن خلالها ؛ فيتجلى لنا ترميزا شعريا يدور في فلك القبيلة . ورغم هذا نجد الدراسات المعاصرة تركز على حياتهم وأخبارهم وتوثق أشعارهم ، وتكاد تخلو من استنطاقات وقراءات متأنية للنصوص العذلية؛ من هنا جاءت أهمية تناول نصوصهم العذلية بالقراءة المتجددة ، وفق المناهج النقدية الحديثة شاملة لسد جوانب النقص ما أمكن.

وفي محاولة جادة من الباحثة لتقديم تفسيرات شافية حول حضور المرأة العاذلة في شعر الصعاليك ؛اعتمادا على قراءة منهجية حديثة ،كانت التساؤلات المثيرة لفكرة الدراسة :

-ما دور نظرية التأويل في تحويل (نص العاذلة) من نص ذي مستوى دلالي محدود إلى نص ذي مستويات منفتحة على دلالات رمزية عديدة ؟

ـ كيف تمكن الشعراء الصعاليك من تأطير النماذج العليا والأنماط البدائية التي شكلت صراعاتهم الداخلية ؟

الشعر بطبيعته الإيحائية والرمزية كذلك المجازية لايمنح موضوع العاذلة صورة متكاملة على نحو واضح بل على شكل أصداء وإلماحات وإشارات تتردد في فضاء مقطوعة أو أجزاء متناثرة من نصوص الصعاليك لذا تمت المعالجة بصفة نصية على ضوء المنهج التأويلي متتبعة في دراستي تلك النصوص من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي..

لقد قامت كثير من الدراسات حول شعر الصعاليك لعل أهمها وأبرزها الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ليوسف خليف والشعراء الصعاليك في العصر الأموي لحسين عطوان كذلك شعر الصعاليك منهجه وخصائصه لعبدالحليم حفني وهي دراسات توثيقية بعيدة عن الاهتمام بالنص الشعري.

و من الدراسات الحديثة :عذل الشاعر في الشعر العربي القديم حتى نهاية العصر الأموي ، للباحثة أسماء عبدالله (رسالة ماجستير). و رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث هجري ، لصغير غريب. وهي من المقاربات التي حاولت أن تستمد آلياتها من المقولات النقدية الحديثة كما حاولت تحقيق درجة مرضية من التكامل في المنهجية والطرح .

وتم تقسيم البحث إلى :

مقدمة ، ثم تمهيد اختزل مكانة المرأ ة في شعر الصعاليك. و توزعت دراسة النصوص الشعرية على مبحثين: الأول ينطوي على مفهوم العذل وبنيته الحوارية ؛ في حين تفرد العذل الأنثوي بالمبحث الثاني .ثم الخاتمة التي تضم نتائج البحث ، تليها قائمة المصادر والمراجع.

التـــــــمهـــيـــــــد

احتلت المرأة عند العربي منزلة رفيعة ، حيث رأى فيها الحياة الرغيدة والجمال السماوي ؛ لذا جعلها رمزاً للمحبة والود وعنوان الخير والخصب والنماء.

هكذا أولى الشاعر المرأة اهتماماً خاصاً ونظر إليها نظرة تسمو إلى المثال ، لذا شبّه المرأة بما هو ساحر واستمد من عالمه نماذجها العليا في الجمال. ومع أن نموذجها في الشعر جاء متراوحاً بين الخيال والواقع وبين مدحها وذمها ظل الرجل " ينظر إليها عبر كل العصور من موقف الإعجاب تقريباً فهي المخلوق الجميل الذي وهبه له الله " (١).

وهذه النظرة أسهمت في رسم نموذج المرأة لذا " نرى المرأة رمزاً للحياة والجمال والسعادة ونشوة الانتصار الميتافيزيقي في مواجهة الوجود . ونراها من ناحية أخرى رمزاً للزمن وما يمثله من تقلب وشرور" (٢) . ومع بداوة العربي وقسوته في بعض المواقف إلا أنه بذل العشق والمحبة لها، وسعى إلى الاستمتاع بها . كما استطاعت هذه المرأة أن تكشف في الرجل عن قلب رقيق ، وحس مرهف وروح محبة للحسن الأنثوي ، تعشق الجمال وتبحث عنه . فلا غرو أن يتجشم العربي مشقة المغامرة وتحدي المخاطرة من أجلها .

لقد قدمت نصوص الصعاليك الشعرية صورة جلية عن صدق العاطفة التي ربطت الصعلوك بالمرأة ، والتي طالما أحبت الصعلوك وحرصت على حياته . كما أنها المحبوبة التي استعاض بها الصعاليك عن المقدمات الطللية والتي سار على نهجها شعراء الجاهلية ، يوضّح ذلك الدكتور يوسف خليف بقوله " إنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخرا استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محوره (حواء الخالدة) أيضاً . ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ويقف على أطلال ديارها ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه " [٣] ، ولكنها العاذلة التي تبدي حرصاً على حياة الصعلوك " وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يصنع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة الأنثى الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً مستهيناً بحياته من أجل فكرته يرفض نصيحتها في رفق وأدب " [٤] .

والصعاليك : فئة متمردة رفضت الذل وقاومت سياسة القمع بحركة فعلية تمردية ، خرجت على القوانين والأعراف القبلية الجاهلية ، وما نصوصهم الشعرية إلا انعكاس لتلك الذات الرافضة . وهذا يعني أن حضور المرأة في شعر الصعاليك ليس حضورا حقيقا تاما لصورة زوجة عاذلة أو حتى معشوقة ؛

---

[١] يوسف، حسني عبد الجليل: عالم المرأة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ٢٠٠٧، ط١، ص١٣.
[٢] السابق ، ص ١٣ .
[٣] خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ،دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت)، ص ٢٦٢ .
[٤] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص ٢٦٢ .

ولكنها أحيانا تمثل رمزاً يترجم صراع الذات ، وهذا ما ذهب إليه يوسف عليمات في بحثه (صورة المرأة عند الصعاليك) حيث يقول " إن هذه الصورة الواقعية للمرأة لا تنسحب على صورة المرأة عند الصعاليك لأن حضور المرأة عندهم ليس حقيقياً بقدر ماهو رمزي يعبر عن آرائهم وتصوراتهم للمجتمع والحياة . فالمرأة في حياة الشاعر الصعلوك ليست زوجة أو حبيبة حقيقية تدفعه إلى الفعل والركون إلى السكون والدعة ، والاستقرار وإنما هي نسق ثقافي مضمر يجسد حقيقية الصراع بين الصعلوك والقبيلة " (٥) .

وبذلك أخذ حضور المرأة في شعر الصعاليك يتراوح بين الرمز والواقع ، والحقيقة والخيال . وأهم صورة لذلك الحضور هي (المرأة العاذلة).

المبحـــــث الأول / العـــــذل

المطلب الأول- مفهوم العذل والعاذلة

تعددت أساليب الشعراء الصعاليك في الكشف عن مكنونات الذات وإظهار قيم الصعلكة المزعومة، فكانت ظاهرة العذل من أبرز تلك الأساليب التي تميل عن مباشرة المعنى إلى المواربة والالتفاف.

فالصعلوك يلجأ إلى فكرة العذل واستحضار عاذلة تُثير حواراً قلقاً يُحرّض الشاعر على الاسترسال في تبرير مواقفه وسرد قناعاته وأياً كان هدف الصعلوك من العذل فإنه استطاع من خلاله أن يخلق له عالما افتراضياً يمارس في ضوئه وظيفة الصعلكة بقناعة تامة وفق رغباته بعيداً عن سلطة القمع.

تعددت مرادفات العذل في نصوص الصعاليك منها اللوم والعتب أو العتاب وجميعها تصب في قاموس العذل وترد في سياقاته؛ فاللوم يكثر فيه التأنيب والتعنيف، بعكس العتب الذي يكتنفه اللين والرفق مع الاستعطاف.

وقد اقترن العذل باللوم في شعر الصعاليك كما اقترن اللوم بالتعنيف يقول تأبط شراً(٦):

عَـــــاذِلِتي إنّ بَعْـــــضَ اللّـــــوْمِ مَعْنَفَـــــةٌ

وهَـــــلْ مَتَـــــاعٌ وإنْ أبْقَيْتُـــــهُ بَـــــاقِ

ونجد زوجة عروة بن الورد تعاتبه برفق وتستعطفه بالبكاء(٧):

تَقُـــولُ ألا أقْصِـــرْ مِـــنْ الغَـــزْوِ وأشْـــتَكى

(٥) عليمات ، يوسف محمود : صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، مجلة العلوم الإنسانية ، كلية الآداب ، جامعة البحرين ، العدد ١٤، ٢٠٠٧، ص٢٤٣ .

(٦) المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٥، (د.ت)، ص ٣٠.

(٧) عروة بن الورد : الديوان ، تحقيق : كرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت (د . ت) ، ص٨٢.

لَهَا القَوْلَ طَرْفٌ أحورُ الْعَيْنِ دَامِعُ

ومن التعب أيضا قول السليك [٨] :

أَلَا عَـتَبَتْ عَلَيَّ، فصارَمَتنِي وأَعْجَبَهـا ذَوُو اللِّمِـمَ الطِـوالِ

والعذل: هو اللوم كما ورد في لسان العرب وعذله لامه [٩] ، واللوم قد يقع بفعل خارجي وقد يكون صراعا داخليا كما دلت عليه الآية{ ولا أقسم بالنفس اللوامة} [١٠]. وذكر ابن الإعرابي العذل الحرق ، فكأن اللائم يحرق بعذله قلب المعذول، [١١]

وهناك العذل الفردي والجماعي، والذكوري والأنثوي، لكن الغالب في شعر الصعاليك صوت العذل الأنثوي.

ورد العذل الجماعي في أبيات لتوبة بن الحمير، حين لامه الناس في حب ليلى يقول[١٢]:

يَلوْمُـــــكَ فيْهَـــــا اللائِمُـــــونَ فَصَـــــاحَةً

فَلَيْـــــتَ الهَـــــوى بـــــاللائِمِينَ مَكَانِيـــــا

لـــوْ أنْ الهَـــوى فِـــي حُـــبِّ ليْلَـــى أطَـــاعَنِي

أطَعْـــتُ ولَكِـــنْ الهَـــوى قَـــدْ عَصَـــانِيا

وقد يرد العذل في نصوص الصعاليك صريحاً بلفظه، منه قول قيس بن الحدادية[١٣]:

لا تَعْـــذِلِينِي سَـــلْمَى اليَـــوْم وانْتَظِـــرِي

أنْ يَجْمَـــعَ اللهُ شَـــمْلاً طَالمَـــا افْتَرقَـــا

كما ورد بلفظ اللوم عند عروة بن الورد[١٤]:

أرَى أمَّ حَسَّـــــانَ الغَـــــدَاةَ تَلُـــــومُنِي

---

[٨] الديوان ، ص ٨٧.

[٩] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:لسان العرب،دار صادر ، بيروت ، المجلد ١١، مادة عذل ص٤٣٧.

[١٠] سورة القيامة، آية ٢ . راجع توضيح مفصل عن النفس اللوامة كتاب (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) لابن قيم الجوزية ،الباب الحادي عشر (علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه).

[١١] لسان العرب ، المجلد ١١، مادة عذل ص٤٣٧.

[١٢] البغدادي، محمد بن المبارك: منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح: محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط١،١٩٩٩ ،تسعة مجلدات ،المجلد ١، ص٢٣٤

[١٣] الأصفهاني، أبو الفرج : الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ط٨، ١٩٩، ج١٤، ص١٤٣.

[١٤] الديوان، ص٦٧.

تُخَـــــوِّفنِي الأعَـــــدَاءَ والـــــنَّفْسُ أخْـــــوفُ

كذلك ورد ضمنيا أي غير صريح يُفهم من السياق بدلالة الأمر، يقول عروة [١٥]:

ذَرِينِـــــــــي وَنَفْسِـــــــــي، أمَّ حسَّـــــــــان إنّنِـــــــــي

بِهَـــــا قَبْـــــلَ أنْ لا أمْلِـــــك البَيْـــــعَ مُشْـــــتَرِي

وفي موضع آخر يقول[١٦]:

دَعِينِـــــــــي لِلّغِنَـــــــــى أسْـــــــــعَى فَـــــــــإنّي

رَأيْـــــــتُ النَّـــــــاسَ شَـــــــرَّهُمُ الفَقِيـــــــر

وفي ثالث[١٧]:

دَعِينِـــــي أطـــــوِّف فِـــــي الـــــبِلَادِ لَعَلّنِـــــي

أفيـــــدُ غِنَـــــى، فِيْـــــهِ لِـــــذِي الحَـــــقِّ مَحمـــــلُ

ويقول الشنفري في ذلك[١٨]:

دَعِينِـــي وقُـــولِي بَعْـــد مَـــا شِـــئْتِ إنّنـــي

سَـــــيُغدَى بِنَعْشِـــــي مَـــــرّةً فَأغِيـــــبُ

في الأبيات السابقة نجد الصعلوك يتجاوب مع صوت عذلي غائب تشي به صيغة الأمر في دلالة الترك (دعيني، ذريني) وكأن العذل يقيد الشاعر فيحاول التفلت منه بتبرير موقفه من الصعلكة؛ فهي تمثل الانطلاق والحرية، والحياة - كما يراها الصعلوك – مرة سيعيشها كما يشاء متصعلكا لا كما تفرض عليه قوانين القبيلة. إنها الحاجة والفقر التي دفعت الصعلوك لانتهاج الصعلكة، يقول في ذلك السليك[١٩]:

ومَـــــا نِلْتهَـــــا حتّـــــى تّصَـــــعْلَكْتُ حقْبَـــــةً

وَكِـــــدْتُ لِأسْـــــبَابِ المَنِيّـــــةِ أعْـــــرِفُ

وَحَتّـــــى رَأيْـــــتُ الجُـــــوْعَ بالصّـــــيْفِ ضَـــــرّنِي

---

[١٥] الديوان، ص ٦٧.

[١٦] الديوان، ص٧٩.

[١٧] الديوان، ص٩٧.

[١٨] ديوان الشنفرى، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي ،بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٧.

[١٩] السليك بن السلكة : الديوان ، تحقيق د. سعدي الضنادي، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤م، ص٨٤.

إذا قُمْـــــتُ تَغَشّـــــانِي ظِـــــلَالَ فَأسْـــــدفُ

روح التمرد قادت الصعاليك إلى إحداث التغيير المتمثل في القوة ؛ لمعانقة الوجود بإثبات الذات وتحقيق العدالة والحرية؛ لذا كانت الصعلكة من وجهة نظر الصعلوك "نزعة إنسانية نبيلة وضريبة يدفعها القوي للضعيف والغني للفقير وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء.... وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان[٢٠] العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادي".

كما تضمّن الفعل (زعم) معنى العذل، يقول توبة[٢١]:

وَقَـــدْ زَعمَـــتْ لَيْلَـــى بِـــأنّي فَـــاجرٌ

لِنَفْسِـــي تُقَاهَـــا أم عَلَيْهَـــا فُجُوْرُهَـــا

فالفعل (زعمت) هو المثير لفكرة العذل.

ويقول أبو خراش[٢٢]:

فـــإن تَزْعُمِـــي أنـــي جبنْـــتُ فـــإنني

أفـــر وأرمـــي مـــرةً كـــل ذلـــك

أقاتـــلُ حتـــى لا أرى لـــي مقـــاتلاً

وأنجـــو إذا مـــا خفـــت بعـــض المهالـــك

فالفعل (تزعمي) استدعى من الشاعر تبريرا لأفعاله.

وقد يأتي العذل الضمني في صيغة الاستفهام، يقول عبيد الله بن الحر الجعفي[٢٣]:

ألـــمْ تَعلمِـــي يـــا أمَّ تَوبـــةَ أننـــي أنـــا الفـــارسُ الحـــامِي حقـــائقَ مَـــذْحِجِ

وأنـــي صـــبَّحتُ السّـــجنَ فـــي رونـــق الضـــحى بكـــلّ فتًّـــى حـــامي الـــذّمار مُـــدَجِّجِ

---

[٢٠] الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص٤٣.

[٢١] منتهى الطلب ، المجلد١،ص٢٢٧

[٢٢] السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين : شرح أشعار الهذليين ، حققه : عبدالستار أحمد فراج ، راجعه محمود شاكر ، مكتبة العروبة ، مصر ، عدد المجلدات ٣ ، ١٩٦٥ ،جزء٢، ص١٦٩.

[٢٣] منتهى الطلب ، المجلد٣،ص٣٠٥-٣٠٦.

فمـا إن بَرحنـا السّـجن حتـى بَـدا لنـا جبـينٌ كقـرنِ الشـمس غيـرُ مُشـنّجِ

وخـدٌّ أسـيلٌ مـن فتـاةٍ حَيِيّـةٍ ألا فَسَـاقها كـلُّ مُـزْنٍ مُـبَعِّجِ

.....

ومثلـي حـامي دونَ مِثلـكِ إننـي أشـدُّ إذا مـا غمـرَةٌ لـم تُفَـرَّجِ

أضَـارِبُهُمْ بالسّـيفِ عنـكِ لِتَرْجِعـي إلـى الأمـنِ والعـيشِ الرّفيـعِ المُخَـرفَجِ

تلح تلك العاذلة على لوم الشاعر في خوض المعارك خوفاً عليه من الهلاك. ولكن عبيدالله يذكرها بأنه فارس شجاع استطاع أن يحررها من السجن رغم الحراسة والقوة التي كانت تحيط بها، فتعود مكرمة معززة (أضاربهم بالسيف عنك لترجعي...). ففكرة العذل في الأبيات السابقة قامت على الاستفهام (ألم تعلمي) .

إن الشخصية العذلية في نصوص الصعاليك هي تلك البنية العميقة التي تتجلى للشاعر في كل فكرة أو فعل أو إدراك ؛ استجابة لرغبة الصعلوك فتظهر كذات منفصلة متفاعلة مع الحدث العذلي. تماماً مثلما يستحضرها سعد بن ناشب في معرض حديثه عن وطأة العذل الواقع عليه من زوجته بسبب إقتاره وما عسره إلا نتيجة كرمه مع الآخرين[٢٤]:

إن تعـــــذليني تعـــــذلي بـــــي مُـــــرَزّأ

كـــريم نثـــا الإعســـار مشـــترك اليســـرِ

فالمرأة العاذلة أو العاتبة في شعر الصعاليك: هي امرأة كثيرة العذل واللوم لحوحة في استعطافها، تجسد قلق الذات الذي يحاول الشاعر الصعلوك إخفاءه خلف ذلك الصوت ، رافضاً الإقرار به ومحملاً المرأة خلجاته، خالعاً عليها صراعه.

ونجد المرأة العاذلة تتلبس هذا الإحساس متقنعة بمختلف الأساليب التنكرية في الحرص على سلامة الشاعر وماله وعياله ومعنفة له على إقدامه وشجاعته، وهي بذلك تثير حواراً جدلياً مع الشاعر محاولة إقصائه عن موقفه في التصعلك.

يقول عمرو بن البراقة [٢٥]:

تقـــــول ســـــليمى لا تعـــــرّض لتلفـــــة

وليلـــك عـــن ليـــل الصـــعاليك نـــائم

(١) الديوان ، ص٦٥.

(٢٤) الأصمعي : الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، ط٤، ص٢٠٧-٢٧١.

(٢٥) منتهى الطلب من أشعار العرب، ص٨٤٣.

ألـــــــم تعلمـــــــي أن الصـــــــعاليك نـــــــومهم

قليـــــــلٌ إذا نـــــــام الخلـــــــيّ المســـــــالم

والرجل بطبيعته ينفر من المرأة العاذلة ، كما يُعد كثرة العذل واللوم عيباً فيها، والصعلوك بصفة خاصة يبغض العاذلة لأنها تقيده وهو الحر الشجاع الذي لا تثنيه الشدائد . لذا نجد الشنفرى يثني على أهم صفة في زوجته وهي البعد عن اللوم:[٢٦]

لقـــدْ أعْجَبَتنـــي لا سَـــقُوطاً إذا مَشَـــتْ ولا بِـــذَاتِ تَلَفُّـــتِ

تَبِيـــتُ، بُعَيْـــدَ النَّـــوْمِ، تُهْـــدِي لِجاراتِهـــا إذا الهَدِيَّـــةِ قَلَّـــتِ

تَحُـلُّ بمَنْجـاةٍ مـن اللَّـوْمِ، بيْتَهـا إذا مـــا بُيُـــوتٌ بالمَذَمَّـــةِ حُلَّـــتِ

كـــأنَّ لهـــا فـــي الأرضِ نِسْـــياً علـــى أُمِّهـــا وإنْ تُكَلِّمْـــكَ تَبَلَّـــتِ

أُمَيْمَـةُ لا يُخـزي نَثَاهـا حَلِيلَهـا إذا ذُكِـــرَ النُّسْـــوانُ عَفّـــتْ وَجَلَّـــتِ

وهذه الصفات المعنوية - التي قال فيها الأصمعي " هذه الأبيات أحسن ما قيل في حق النساء وعفتهن " [٢٧]

والعواذل من النساء جمع عاذلة ويجوز عاذلات[٢٨] ومنها المذكر العاذل. والعاذلة تأتي في صورة الزوجة والابنة والمحبوبة ويقابلها المعذول وهو الشاعر غالباً. وهناك الموضوع أي الحدث الذي تقوم عليه فكرة العذل.

كما ورد لفظ السائلة والسائل بمعنى العاذل والعاذلة وقام عليهما موضوع العذل. في قول أبو النشناش النهشلي[٢٩]:

وســـــــائلةٍ أيـــــــن الرحيـــــــل وســـــــائل

ومـــــن يســـــأل الصـــــعلوك أيـــــن مذاهبـــــه

وداويـــــة يهمـــــاء يخشـــــى بهـــــا الـــــردى

---

[٢٦] الديوان ، ص٣١-٣٢

[٢٧] الأغاني ، هامش ٢٩٠/٢١ .

[٢٨] لسان العرب، المجلد ١١، مادة عذل ، ص ٤٣٧.

[٢٩] الأصمعيات، ص١١٨.

ســـــرت بـــــأبي النشـــــناش فيهـــــا ركائبـــــه

ليـــــــدرك ثـــــــأراً أو يـــــــدرك مغنمـــــــاً

جـــــزيلاً، وهـــــذا الـــــدهر جـــــم عجائبـــــه

يقول حاجز بن عوف الأزدي لزوجته[٣٠] :

قـــــومي ســـــلامان إمـــــا كنـــــت ســـــائلةً

و

فـــــي قـــــريش كـــــريمٍ الحلـــــف والحســـــبِ

إنـــــي متـــــى أدع مخزوعـــــاً مـــــا تـــــري عُنُقـــــاً

لا يرعشـــــون لضـــــرب القـــــوم مـــــن كثـــــبِ

ويقول في ذلك عروة بن الورد[٣١]:

ســـــلي الطـــــارق المعتـــــر يـــــا أم مالـــــك

إذا مـــــا أتـــــاني بـــــين قـــــدري ومجـــــزري

أيســـــــفر وجهـــــــي أنـــــــه أول القـــــــرى

وأبـــــذل معروفـــــي لـــــه دون منكـــــري

المطلب الثاني- البنية الحوارية في نصوص العذل

الحوار في الفن الشعري ما هو إلا استجابة لطبيعة التجربة التي يمر بها الشاعر لحظة الإبداع؛ وردوده في تلك التجربة يتراوح بين الحقيقة والخيال. يركز فيها الشاعر على الغرض الرئيس الذي سعى له بحيث يحمّل الطاقة الحوارية رغبة ذاتية أو جماعية مدعمة بالحقائق والأدلة بهدف الإفصاح أو الإقناع.

الشعر العربي لم يكن غنائياً صرفاً بل تمتزج فيه الذاتية بالموضوعية وأخص بذلك شعر الصعاليك، فشعرهم يحمل قضية إنسانية تهم الجماعة لا الفرد؛ لذا نجد نصوصهم لا تخلو من النزعة الدرامية والتي تمثلت في الحوار العذلي.

هكذا يندغَم العذل في نسق شعري ليشكل بنية حوارية تثيرها المرأة العاذلة؛ فالشاعر الصعلوك وجد في حديثها فضاءاً لتفريغ طاقاته التعبيرية، كما وجد في رقة طبعها وصبرها متسعاً للبوح بمكنوناته.

---

(٣٠) الأغاني، جزء١٣، ص٢١١.

(٣١) الديوان، ص ٨٧.

والحوار يمثل فنا رفيعا في تبادل الأحاديث ووجهات النظر ، سواء بلغ مرحلة الإقناع أم لا . لكنه تواصل مباشر وفعال في ملامسة الحقائق ، تقوم عليه كثير من فنون المحادثة كالمجادلة ، المحاجة ، المناقشة ، المباحثة والمناظرة وغيرها . وقد وردت الإشارة إلى الحوار كثيرا في القرآن الكريم ومنها قولى تعالى :{ قال له صاحبه وهو يحاوره }[٣٢] وأيضا قوله :{والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير }[٣٣]

والحوار لغة : المحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب ، وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام ، والمحاورة : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.[٣٤]

وفي الاصطلاح : مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين ، وعرفه بعضهم بأنه نوع في الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة.[٣٥]

تقنيات أسلوب الحوار في النص الشعري - الحوار نوعان:

١- المنولوجي (حوار داخلي) "فهو عبارة عن رسم غير مباشر لشخصية ما أو أثر أدبي مرتكز على حادثة واحدة تقدمه شخصية حقيقية أو خيالية في حديث من جانب واحد"[٣٦].
٢- "الدايالوج (الحوار الخارجي) وينقسم إلى :
أ - حوار مباشر .

ب – حوار غير مباشر له صيغتان:

الأولى : تسمى النقل غير المباشر وفيه يتم ضغط الأحداث ويُختصر الزمن ويكون المنقول على درجة من الانتقائية .

الصيغة الثانية : تعتمد على المنقول المباشر إذ يتم استدعاء حوار جرى في الماضي محافظاً على حرفيته وصيغته الزمنية[٣٧].

البنية الحوارية في نصوص العذل عند الصعاليك تقوم على ثنائية صوتية (حوار خارجي أو ما يعرف الدايالوجي) متنقلة بين صيغه المختلفة مباشرة وغير مباشرة. وغالباً يكون صوت العاذلة هو المثير لفكرة العذل ونجد في المقابل صوت الشاعر مبرراً ومدافعاً عن موقفه .يقول بكر بن النطاح[٣٨]:

قالت عنان وأبصرتني شاحباً يا بكر مالك قد علاك شحوبُ

فأجبتها يا أخت لم يَلق الذي لاقيتُ إلا المبتلى أيوبُ

([٣٢]) سورة الكهف آية ٣٧

([٣٣]) سورة المجادلة آية ١

([٣٤]) لسان العرب مادة حور ص٢٦٤

([٣٥]) زمزمي ، يحيى : الحوار وآدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، دار التراث والتربية ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، ص٢٢

[٣٦] فرحات ،أسامة: المونولوج بين الدراما والشعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ت)، ص٢٠.

[٣٧] عبدالسلام، فاتح: الحوار القصصي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص٩٢.

[٣٨] الأغاني، ص٥٠-٥١.

حتـــى ابتليـــت بحلـــوه وبمـــره شـــيئاً يلـــذ لأهلـــه ويطيـــبُ

والمـر يعجـز منطقـي عـن وصـفه فـالحلو منـه للقلـوب مـذيبُ

فأنـــا الشـــقي بحلـــوه وبمـــره وأنـــا المعنّـــى الهـــائم المكـــروبُ

يـــا درُّ حالفـــك الجمـــال فمالـــه فـي وجـه إنسـان سـواك نصـيبُ

كـــل الوجـــوه تشـــابهت وبهرتهـــا حسناً فوجهك فـي الوجـوه غريـبُ

والشمس يغرب في الحجاب ضياؤها عنـا ويشـرق وجهـك المحجـوبُ

نجد أصوات تعبر النص لتشكل حواراً درامياً مباشراً قائم على ثنائية التقابل الصوتي (قالت – فأجبتها) وتنطلق للكشف عن العذاب الذي يعانيه الصعلوك. فالشاعر يُقدِّم أحداثاً جزئية تنتظم في حِوارٍ متقن ، وهو حوار قائم على القص الخارجي للأحداث.

يقول عروة[٣٩] :

تقـــول ألا أقصـــر مـــن الغـــزو وأشـــتكي

لهـــا القـــولُ طـــرف أحـــور العـــين دامـــع

وقوله[٤٠] :

تقـــول ســـليمى لـــو أقمـــت لســـرنا

ولـــم تـــدر أنـــي للمقـــام أطـــوِّفُ

ويقول تأبط شراً[٤١]:

تقـــول تركـــتْ صـــاحباً لـــك ضـــائعاً

وجئـــت إلينـــا فارقـــاً متباطنـــا

وقوله[٤٢] :

---

[٣٩] الديوان، ص٨٢.

[٤٠] الديوان، ص٨٧.

[٤١] تأبط شرا : الديوان، جمعه وحققه وشرحه علي ذو الفقار شاكر،دار الغرب الإسلامي،ط١،١٩٨٤، ص١٦٢

[٤٢] الديوان، ص٢١٣.

تقـــــــــول ســـــــــــلمى لجاراتهـــــــــــا

أرى ثابتـــــــــــا يَفَنـــــــــــا حـــــــــــوقلا

وأيضاً[٤٣]:

ألا عجـــــــب الفتيـــــــان مـــــــن أم مالـــــــك

تقـــــول أراك اليـــــوم أشـــــعث أغبـــــرا

لم يكن الحوار في نصوص العذل السابقة عرضياً بل كان يرتكز على رؤية ذاتية للصعلوك حيث يجد فيه ضالته لحشد المواقف وتصوير الصراع الداخلي. كما نلحظ أن الشاعر يحاول إعطاء النص قدرا كبيرا من الحيوية ، ويبعد القارئ عن الملل الذي يسببه أسلوب السرد والوصف ؛ لذا لجأ إلى الحوار مع العاذلة ممثلاً في (تقول ، وقالت). وهذا الحوار هو تماما ما وصفه الدكتور رجاء عيد بقوله " إن المعطى التراثي للأداء الحواري يأخذ أنماطاً آحادية البعد ، تتكرر أشكالها وتتعدد صورها حيث يظل مكتفياً بقص خارجي يحكي الموقف الحواري الحقيقي أو المتخيّل والمتمثّل في قال وقلت أو مخاطبة الرفيق " [٤٤] .

تلك الممارسة الدرامية ليست فكرة كلاسيكية خالية من العمق بل هي سلوك وفعل صعلوكي يتعدى حدود القول لأنها ذات واعية بقضيتها مدركة لأفعالها مصرة على صعلكتها ؛ لذا تتمادى في الدفاع عنها. يقول عبيد بن أيوب العنبري[٤٥]:

تقــول وقــد ألممــت بــالأنس لمــة مخضــبة الأطــراف حــرس الخلاخــل

أهــذا خليــل الغــول والــذئب الــذي يهـــيم بربـــات الحجـــال الهراكـــل

رأت خلــق الأدارس أشــعث شــاحباً علــى الجــدب بســاماً كــريم الشــمائل

الشاعر الصعلوك كثير الأسفار في الفلوات لا يعرف الاستقرار؛ لذا نجد آثار المشقة والتعب في ملامحه فهو أشعث أغبر رث الثياب ؛ لانشغاله بأمور أهم من مظهره. وهذا يعني أن الحوار السابق لم يكن مجرد معالجة لموقف عذلي يتكرر من امرأة ساخرة ؛ بل المغزى منه هو التعرض للفعل الصعلوكي بالتبرير.

وأحياناً تبدو العاذلة في نصوص الصعاليك صامتة ؛ بعد أن أثارت حواراً سابقاً استدعى من الشاعر الرد والاسترسال في تبرير موقفه ، يقول عروة بن الورد[٤٦]:

وقـــد علمـــت ســـليمى أن رأيـــي ورأي البخـــل مختلـــف شـــتيت

---

[٤٣] الديوان، ص٩٨.

[٤٤] عيد ، رجاء : لغة الشعر – قراءة في الشعر العربي المعاصر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ٢٠٠٣، ، ط١، ص١١٢ .

[٤٥] ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، الدار العربية للكتاب، ط٣، ١٩٨٣م، ص٦٦٩.

[٤٦] الديوان، ص ٥٠.

وإنـــــي لا يرينـــــي البخـــــل رأي سـواء إن عطشـت وإن رويـتُ

وإنـــي حـــين تشـــتجر العـــوالي حـــوالي اللـــب ذو رأي زميـــتُ

كما أن البنية الحوارية في نصوص العذل عند الصعاليك لا تنهض دائماًعلى صوتين بل ربما تسلل صوت ثالث لإثارة الحدث. يقول تأبط شراً[٤٧]:

يـــا مـــن لعذالـــةٍ خذالـــةٍ أشـــب حـــرق بـــاللوم جلـــدي أي تحـــراق

يقـول أهلكـت مـالاً لـو قنعـت بـه مـن ثـوب صـدق ومـن نبـرٍّ وأعـلاق

عـــاذلتي إن بعـــض اللـــوم معنفـــةٌ وهـــل متـــاعٌ وإن أبقيتـــه بـــاقٍ

عند تتبع الصوت العذلي في الأبيات السابقة يلتقي القارئ مع صوت ثالث (عاذلتي) مضافاً للصوتين السابقين عليه (صوت الشاعر + صوت العاذل المذكر).

هكذا نجد أن المزاوجة بين المباشرة والحوارية في النسق التعبيري للبناء العذلي عند الصعاليك ما هو إلا اختراق للسياق اللغوي التقليدي أدى إلى تفجير طاقات إيجابية لتلك النصوص في مداها اللامتناهي؛ لذا نتوصل إلى نتيجة مهمة حول وظيفة الحوار في النصوص العذلية عند الصعاليك:

١ – بناء شخصية الصعلوك.

٢ – بناء الحدث (موضوع العذل).

وعلى أي حال فإن صوت العاذلة والرد عليه في شعر الصعاليك يقدم لنا حواراً قصصياً بين الشاعر وعاذلته ؛ لذا يمكن القول بأن النصوص الشعرية العذلية هي نصوص حوارية بجملتها.

المطلب الثالث-السلطة العذلية الذكورية

تنفرد صورة العاذلة في نصوص الصعاليك بأقنعة غير مألوفة عند الشعراء ؛ حين نجد الفعل العذلي يتحول إلى سلطة عذلية ذكورية، يحدثنا تأبط شراً عن عاذله قائلاً : [٤٨]

يا مَنْ لِعَـــذَّالَـــةٍ خَذَالَةٍ أَشِـــــب حَـــرَّقَ بِـــاللَّوْمِ جِلْـــدِي أَيَّ تَحْـــرَاقِ

يقـف بنـــــا يَقُـولُ أَهْلَكْـتَ مَـالاً لَـوْ قَنِعْـتَ بِـهِ مِـنْ ثَـوْبِ صِـدْقٍ وَمِـنْ بَـزٍّ وَأَعْـلاَقِ[٤٩]

الشاعر على حقيقة ينظمها بفلسفة عقلانية ، تشف عن رؤية ذاتية لجوهر الصعلكة المنشود ، حول قضية

---

[٤٧] الديوان، ص ١٤٠.

[49] الديوان ، ص 140 .

([49]) العذالة : كثير العذل , الخذالة : كثير الخذل ,الأشب : المخلط المعترض , البز: ثياب المعركة,الأعلاق : المال الكريم.

البذل والتقتير . كما أن هذا النص الشعري العذلي يربط بين ثنائيتين ضديتين ، هما : البخل وهو يعني الموت - بحسب رؤية الصعلوك - والبذل ومعناه الحياة ، من هنا يتضح سبب موقف الشاعر في رفض سلطة العذل ، والتي تجبره على انتهاج سبل الموت بفرض الحالة السكونية المتمثلة في البخل ، وهي حالة مضادة للبذل الذي يصور الحياة بحراكها الدائب ، بعيداً عن قيود التقتير ؛ لذا كان لوم العاذل محرقاً لذات الصعلوك فهو يشبه النار الحارقة التي تسبب حروق في جسده ؛لقوة وقعه الأليم على نفسه فهو ضد رغبتها " إنها ذات يحاصرها المجتمع ويحرقها عذلاً ولوماً ويحاول كبح جماحها ، وردها إلى منظومة الأفكار والعادات الاجتماعية السائدة .....؛ فتجادل في ذلك وتغضب وتندد بالقطيعة والفراق " [٥٠]. فالشاعر قد ضاق ذرعاً ولم يعد الفعل العذلي ذا جدوى بمختلف سلطاته ؛ لذا يتكشف لنا الوجه الحقيقي للعذل الأنثوي بعيداً عن لعبة الأقنعة : [٥١]

عَـــاذِلَتِي إنَّ بَعْـــضَ اللَّـــوْمِ مَعْنَفَـــةٌ وهَـــلْ مَتَـــاعٌ وإنْ أَبْقَيْتُـــهُ بَـــاقِ

فالمرأة العاذلة مهما حاولت تغيير أساليبها التنكرية في اللوم والتعنيف ، هي في النهاية عاجزة عن الإقناع ؛ لذا كانت لغة التهديد لغة متكافئة مع لغة العذل المحرقة القاتلة ، إذا استمرت القبيلة في تعنيف الشاعر على أفعال البذل حتما سيكون الرحيل اختياره :[٥٢]

إنِّـــي زَعِـــيمٌ لَـــئِن لَـــمْ تَتْرُكـــي عَـــذْلِي أنْ يَسْـــأَلَ الحَـــيُّ عَنِّـــي أَهْـــلَ آفَـــاقِ

أَنْ يَسْـــأَلَ القَـــوْمُ عَنِّـــي أهْـــلَ مَعْرِفَـــةٍ فـــلا يُخْبِّـــرُهُمْ عَـــنْ ثَابِـــتٍ لَاقِ

وهذه عادَة الصعلوك في انتصاراته الفعلية والقولية ، كما كان هذا نهجه مع العاذل المذكر الذي أخرسه بحركة فعلية ، أرغمته على الخضوع وقبول الهزيمة من الصعلوك : [٥٣]

ولمّـــا أبـــى اللَّيْثِـــيُّ إلاانتهاكنـــا صـــبرتُ وكـــأنَ العِـــرْض عِرْضِـــي أوْفَـــرَا

فقلـــتُ لـــهُ حـــقّ الثنـــاءِ فـــإنني ســـأذهبُ حتـــــــى لـــم أجـــــدْ

ولمـــا رأيـــتَ الجهـــلَ زادَ لجاجـــةً متـــأخـــــرا

دَنَـــوتُ لَـــهُ حَتَّـــى كَـــأَنَّ قَمِيصَـــهُ تَشَـــرَّبَ مـــن نَضْـــحِ الأخَـــادِعِ عُصْـــفُرَا

([٥٠]) عثمان ، عبد المنعم علي : الصورة الشعرية في شعر الصعاليك ودورها في الكشف عن الجوانب النفسية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مصر، العدد ١١، ٢٠٠١، ص ١١٣ .

([٥١]) تأبط شرا : الديوان ، ص ١٤١.

([٥٢]) تأبط شراً : الديوان ، ص ١٤١ .

([٥٣]) تأبط شراً : الديوان ، ص١٠١-١٠٢.

هكذا يكون ارتداد الصوت العذلي بشكل عكسي ، فمن علو إلى خفوت وإلجام ، وقد تم معالجة ذلك المقول العذلي بفعل بطولي تفردت به إرادة الصعلوك.

ومن السلطة العذلية الذكورية قول القتال الكلابي معاتبا محبوبته التي صرمت حبال الوصل. ويلومها على وصل الشاب الوسيم ، فهي تقدِّم جمال الشكل على الرجولة المتمثلة في الشجاعة والتي تجلت في بطولات الشاعر وإن ظهر لها شيخا هرما: (٥٤)

صَرمَتْ شُمَيْلةُ وِجْهةً فَتَجلّدْ مَنْ ذا يقــولُ لها علينا تَقْصِــدِ

أَشُمَيْلَ ما أدْراكِ إن عاصيْتِنِي أنَّ الرَّشادَ يكونُ خلفـكِ مِنْ غـَدِ

ياظبيــةٌ عطفتْ لآدمَ شــادنٍ هــَلّا أويتِ لقلب شيـخٍ مُقْصَـدِ

فإن أراد الوصــلَ لاتصلينــَهُ ووصلــتِ أصحابَ الشبابِ الأغيـدِ

كما يلوم السليك محبوبته حين فضلّت عليه صعلوكا آخر؛ لذا أخذ بتعداد مناقبه ومفاخره (٥٥) :

فَــــلَا تَصِــــلي بِصُــــعْلُوكٍ نَــــؤُومٍ إذا أمســــى يُعَــــدُّ مِــــنَ العِيــــالِ

إذا أَضْــــــحَى تَفَقَّــــــدَ مِنْكِبَيَــــــهِ وأَبْصَــــرَ لَحْمَــــهُ حَــــذَرَ الهُــــزَالِ

ولكــــنْ كُــــلَّ صُــــعلوكٍ ضَــــروبٍ بِنَصْــــلِ الســــيفِ هامــــاتِ الرِجَــــال

فهذه البطولات هي دأب الصعلوك الشجاع ، وهي همّة عالية لا يمكن أن يدركها الصعلوك الخامل الذي يتفقد لحم منكبيه وهي كناية عن شدة حرصه على الدعة والنعمة في ركونه إلى الكسل. هنا تبدو المفارقة بين الصعلوك البطل /الشاعر ، والصعلوك الجبان/المرغوب ، فلا مجال لوصم الشاعر بالنقص . وهذه المرأة العاتبة رامزة إلى موقف القبيلة الاجتماعي من الأغربة الصعاليك ، حين قابلتهم بالرفض و الإهانة ، وكلفتهم بممارسة الأعمال المهينة لكونهم سودا . فما كان من هؤلاء الصعاليك إلا مقابلة الذل بالثورة والانعتاق عن مجتمع القبيلة " إذ رأى المجتمع هؤلاء الصعاليك شذاذاً خارجين عليه ، غير متوافقين معه، فتنكّر لهم، وتَخلى عنهم وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه.... ورأوا هم في مجتمعهم مجتمعاً مختلاً، يسيطر عليه ظلم اجتماعي وتسوده أنانية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية" (٥٦)

.

(٥٤) منتهى الطلب ، المجلد ٣ ،ص ٢٨٧

(٥٥) الديوان ، ص ٨٨.

(٥٦) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٥٤-٥٥ .

وهذا بكر بن النطاح ينظم عتابا رقيقا عجيبا لمحبوبته التي هجرته ، ويصل به الهيام والتذلل لنيل رضاها إلى فكرة الانتحار شغفا وحبا [٥٧]

مـالي بما ذكر الرسـول يـدان بل إن تـم رأيـك ذا خلعت بنانـي

يامـن يتوق إلى حبيـب مذنبٍ طاوعتـه فجـزاك بالعصيـانِ

هـلا انتحرت فكنت أول هـالك إن لم يكـن لك بالصدود يـدانِ

كنـا وكنتـم كالبنـان وكفـها فالكـف مفردة بغـير بنـانِ

المبحث الثاني / العاذلة

المطلب الأول- الزوجة العاذلة

لقد تقنّعت المرأة العاذلة في شعر الصعاليك بعدّة أقنعة جمعية وذاتية ، واستأثرت المرأة الزوج بهذا الرمز في شعر الصعاليك ؛ وذلك أن سلبية الزوجة هي دافع لتوليد صورة العاذلة عندهم ،" وكثيراً ما عقد معها حوارات متنوعة، بسط من خلالها سلوكه في الحياة . وعرض لمختلف أعماله وأفعاله ، تاركاً لها المجال للبوح بما في داخلها من هواجس ومخاوف وأحاسيس ومشاعر. كاشفاً النقاب عن نفسية المرأة الميّالة للاستقرار، منصتاً لصوتها الرافض لكل فعل يعرضه للمخاطر والأهوال " (٥٨) . يعلو صوت العاذلة في حوار عروة بن الورد مع زوجته : (٥٩)

أقِلّـي علـيَّ اللـومَ يابنـة مُنـذِرِ ونـامي، وإن لـم تشـتهي النـوم، فاسْـهَرِي

ذرينـي ونفسـي أُمَّ حسَّـانٍ، إننـي بهـا، قبـلَ أن لا أملِـكَ البَيَـعَ، مُشـترِي

والشاعر يشحذ همته من خلال عقد ثنائية الرغبة في الحياة – المتحققة في عطاء الشاعر وشجاعته - ؛ والموت نتيجة منع الشاعر وتقاعسه . فالشاعر يحاول بكل ما أوتي من قوة وحب للعطاء أن يقضي على مظاهر البؤس والفقر، بحركة إحيائية تنتشل الحياة من براثن الموت والتصدي لمظاهره وهذا ما يؤكده قوله : (٦٠)

ذَرينـي أُطـوِّف فـي الـبلاد لعلَّنـي أُخليِّـكِ، أوأُغنيـكِ عـن سـوءِ مَحْضَـرِي

---

(٥٧) الأغاني ، جزء ١٩ ، ص٥١

(٥٨) عبد الكريم يعقوب – أمية موسى : المرأة الزوج في أشعار الصعاليك الجاهليين ، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، سوريا ، العدد ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ١٢٠ .

(٥٩) الديوان ، ص٤١-٤٦.

(٦٠) الديوان ، ص ٤٢ .

فـــإن فـــاز سَـــهمٌ للمنيـــةِ لـــم أكـــن جَزوعـــاً، وهـــل عـــن ذاك، مـــن مُتَـــأَخِّرِ

وإن فـــاز ســـهمي كفَّكـــم عـــن مَقاعـــدٍ لكـــم خَلَـــفَ أدبـــارِ البيـــوتِ ومُنْظَـــرِ

فكان ذلك الصوت الأنثوي الملح في لومه وتأنيبه للشاعر، هو أول باعث للتردي حين يحاول تنحية الشاعر عن أفعاله الماجدة ، وهو همّ يؤرق الصعلوك ويثير قلقه ؛ لذا حاول الشاعر التصدي لهذا الصوت بالإقناع مثبتاً صحة النهج الذي يسلكه في الصعلكة " فجاء جدله مع العاذلة التي تلازم القصيدة ، بأسلوب شعبي (أغنيك عن سوء محضري) وهي جملة فيها مكاشفة جريئة مع الذات المُجَرَّمة، واعتراف نبيل بذنب العائل الذي يتضور أبناؤه من قعوده " [٦١] ؛ لذا كان الشاعر مشغولاً بتقديم المبررات وكلها تهدف إلى تأمين الحياة الكريمة ، وتخليد الذكر الماجد . فهذه عادة عروة في مخاطبة المرأة وخاصة " في مقدمة خطاب الفقر يمنح عروة عادة المرأة دوراً رئيساً ، ينقل صوتها الغاضب وتعنيفها الشديد له ، ويحترمه، بدليل أنه يرد عليه بهدوء ، عارضاً مبرراته المنطقية ، التي يهدف منها إنقاذ عائلته ليس من غائلة الجوع ؛ بل من وطأة الامتهان " [٦٢] ، وهذه المبررات مقنعة لخروج الصعلوك عن سلطة القبيلة والتحرر من قيودها ؛ فهي سلطة تقيد ذاته وتقتل روح الإقدام بداخله .

والشاعر حين يخاطب (ابنة منذر ، وأم حسان) - وهما رمز أنثوي - يشير إلى القبيلة التي توجهت باللوم و النقد إلى أفعال الشاعر. كما أن إلحاح العاذلة الزوجة في الإنذار والتحذير (ابنة منذر) يعطي دلالة واضحة الإشارة إلى الصراع الذي يسكن الشاعر بين حرية الصعلكة وسلطة القبيلة ؛ لذا كان إصرار العاذلة يهدف إلى التقليل من قيمة الفعل الصعلوكي بتقديم صورة مرعبة حول مصير الصعلوك : [٦٣]

تقولُ: لك الويلاتُ ، هل أنت تاركٌ ضُبُوَاً بِرَجْلٍ، تـــارةً، وبِمُنْسَـــــرِ

ومُستثبتٌ في مـــالِكَ، العامَ أنني أراك على أقتادِ صَرماءَ، مُذكِرِ[٦٤]

ولكن الشاعر يواجه الصوت اللائم ، بصوت يحمل الحقائق المجردة حول أفعال الشاعر، فالذات من رؤيته متى بحثت عن الحرية كانت ذاتا فاعلة ومؤثرة تنعم بالحياة الكريمة وهي ذات خالدة بأفعالها

([٦١]) العنزي ، صغير غريب : رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ١٤٣٢هـ ، ص ٢٣٤.

([٦٢])رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص٢٤٣.

([٦٣]) الديوان ، ص ٤٢ .

([٦٤]) ضبوا : الضبو اللصوق بالأرض :المستثبت : القاعدعن الغارات ، الأقتاد : قتد وهي خشب الرحل ، الصرماء : الناقة التي قطعت أطباؤها لينقطع لبنها ، المذكر: التي لم تلد الذكور.

السامية ؛ لأن " الخلود الذي يبحث عنه الشاعر هو خلود الذكر الطيب يحققه عبر المخاطرة وكأنه يحقق الحياة عبر الموت " ([٦٥]) ، وهذا ما يؤكده قول عروة بن الورد : ([٦٦])

أحاديـــث تبقـــى والفتـــى غيـــر خالـــدٍ إذا هـــو أمســـى هامـــةً فـــوق صِـــيَّرِ

وتحقيقاً لهذه الحياة كان خروج الشاعر على ما تواضعت عليه القبيلة من أعراف ؛ لأن " النعمة في ثقافة الصعلوك لا تتحصل بفعل الانتماء القرابي للقبيلة ، ولكنها تتكون بفضل الاعتماد على قدرات الذات في مواجهة إشكاليات الحياة " [٦٧]

وتتفرّد الزوجة في شعر عروة خاصة ، بسلطتها العذلية وحضورها اللائم دوماً، يقول عروة : [٦٨]

أرى أمَّ حسّانَ، الغداة، تلومُني تُخوِّفُني الأعداءَ، والنفس أخوفُ

تقولُ سُليمى: لو أقَمتَ لَسَرَّنا ولم تدرِ أني للمُقـــامِ أطـــوِّفُ

وأمّ حسّان وسليمى هما رمز لصوت الذات الشاعرة يثيره الصراع بين إقدام تفرضه الحياة الرغيدة المتحققة في أفعال الصعلكة وإحجام عن الفعل خشية الهلاك . لذا حاول الشاعر تهميش أم حسان– صوت الذات السلبية - ، وبذلك تكون أم حسان إسقاطاً لذات الشاعر، فقد حمّلها صراعه الداخلي تحت رمز الأنثى المترددة والمتخوفة ، المثبطة لهمم الأبطال . وهذا القلق الذي يسكن الصعلوك دافع قوي لاستحضار صورة اللائمة ، والتي تشبه طبيعة الرجل ، وهذا ما ذهب إليه علماء النفس، فالصعلوك يحاول " بذلك إيجاد رفيقة تستطيع أن تتلقى بأقل ما يمكن من الأضرار إسقاط نفسه " [٦٩] . كما أنه يسقط لومه الداخلي على صورة المرأة (أم حسان – سليمى) ليسوّغ لذاته الإقدام على الفعل الصعلوكي في السلب والنهب ؛ بحثاً عن لقمة العيش ، وهي بلاشك أسباب مغرية لخلق الفعل البطولي عند الشاعر، ومنحه أملاً في الحصول على مراده ، مؤكداً أن الموت حقيقة لا مفر منها ؛ لذا يصادف الصعلوك في غاراته كما يصادف المتخلّف في بيته وبين أهله ، وما ذلك بعذر للتراجع : [٧٠]

لعـــلَّ الـــذي خَوّفتِنـــا مـــن أمامِنـــا يُصـــادِفُه، فـــي أَهْلِـــهِ، المُتخلِّـــفُ

فالشاعر يؤكد أن الخطر ضرورة لتحصيل لذة الحياة السامية ، ولا يمكن أن تستمر حياته دون وجود الخطر ؛ لذا لجأ الشاعر إلى أقنعة السلامة (سلمى – أم حسان) فالسلامة الداعمة لبقاء الحياة الكريمة

([٦٥]) السنجلاوي، إبراهيم: العاذلة في الشعر الجاهلي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، مجلد ٧، العدد ٢٨، ١٩٨٧، ص٤٩ .

([٦٦]) الديوان ،ص ٤٣

([٦٧]) صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، مجلة العلوم الإنسانية ، ص ٢٤٩.

([٦٨]) الديوان ، ص ٦٩ .

([٦٩]) يونغ : جدلية الأنا واللاوعي ، ترجمة: نبيل محسن ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ١٩٩٧، ص١١٢.

([٧٠]) الديوان، ص ٦٩ .

والإحسان المجسّد للفعل العطائي؛ هما غرضان أساسيان قصدهما الشاعر وسعى لتحقيقهما ؛ محاولاً إيجاد حلول توفيقية بين طرفي صراعه الداخلي .

وما هذه النصوص الشعرية العذلية إلا انعتاق وصراع يعانيه الشاعر الصعلوك في مجتمعه القبلي ، كما أنها تجسيد لحدة الخلاف واتساع الهوة بين الشاعر وقبيلته ، وإعلان لبتر الروابط بين الابن ومجتمعه الأم . ومن ذلك حوار تأبط شرا مع زوجته (أم مالك) : [٧١]

ألا عَجِـــبَ الفِتيَـــانُ مِـــنْ أمِّ مَالِـــكٍ تَقُـــولُ أرَاكَ اليَـــوْمَ أشْـــعَثَ أغْبَـــرَا

تَبُوعـــاً لآثـــارِ السَّـــرِيَّةِ بَعْـــدَمَا رَأَيْتُـــكَ بَـــرَّاقَ المَفَـــارِقِ أَيْسَـــرَا

يسرد الشاعر حكايته مع أم مالك العاذلة ، ويقيم معها حواراً ساخناً وجدلاً حاداً ، يعكس فيه صوت الذات الرافضة لسلطة القبيلة ، في حين تظل صورة الصعلكة سامية في نظر الصعلوك -وهذا منحها القبول والرضى في نفسه ، والرفض في عرف القبيلة- ، وقد أثار هذا التناقض فكرة العذل وأنعشها عند الشاعر. والعاذلة تحرص من خلال النص السابق على تقديم صورة سلبية لمعالم الصعلكة ، فتركّز على الجوانب الشكلية في محاولة فاشلة ، ساعية إلى إبراز نقاط الضعف في منهج الصعلكة ، من هنا كان إصرار العاذلة على رسم صورة منفّرة للصعلوك ، فهو (أشعث – أغبر) حين يغير على القوافل كعادته.

وسريعاً نجدها تعقد مقارنة مغرية ، فتقدّم صورة محببة – حسب رؤية المرأة - ؛ وهي صورة الرجل المقيم في الحي ، حين يكون تابعاً لسلطة القبيلة فهو (برّاق المفارق ، أيسرا) ، فما أروعه وأجمله ! لأنه اختار الدعة والسكون على حياة الغزو والنهب . ولكن هذه الصورة السطحية التي تميل إليها المرأة ، لا تنطوي على بطل حقيقي ؛ لذا نجد الشاعر يلجأ إلى استخدام أسلوبها في إقامة الحجج ، ولكن حسب رؤية ذكورية نيّرة ، حين يركّز على الصفات السامية في الرجل ، من القوة والحرص على الذكر الحسن والعمل للغد المجهول ، لا أن يعيش حاضره مستمتعاً ويغفل عن الغد الذي سيخلّد مجده بعد موته ، فهو حريص على الفعل الخالد المتمثل في البطولة لا في الانتهازية والجشع فـ " الشكوى من تباين الحظوظ ، والنقمة على إثراء الآخر وفقر الذات ، ديدن شعر الفقر الصعلوكي ، على امتداد فتراته ، وهو – غالباً – يقوم على المقابلة بين حالين ، وكثيراً ما كانت صورة الغني – في رؤيتهم– مرتبطة بالانتهازية والجشع " [٧٢]. لذا نجد الشاعر يختزل الحياة كلها في يومين ، يوم الإقامة والركون إلى الراحة ويوم البطولة المخلد للذكر الحسن : [٧٣]

فقلـــتُ لَهَـــا: يَومـــانِ، يـــومُ إقامـــةٍ أَهُـــزُّ بـــهِ غُصْـــنَاً مَـــنِ ألْبَـــانِ أَخْضَـــرَا

([٧١]) الديوان ، ص٩٨.
[٧٢] رؤية العالم في شعر الصعاليك ، ص ٢٣٥ .
[٧٣] الديوان، ص ١٠٠ .

ويــومٌ أَهُــزُّ السَّــيفَ فِــي جِيــدِ أَغْيَــدٍ لَــه نُســوةٌ لَــمْ تَلْــقَ مِثْلِــي أَنْكَــرَا

هكذا يرسم لنا الصعلوك صورة المجد الذي يسعى إليه ، وهي آمال خالدة جعلته يتخلى عن قبيلته ، مفضلاً العالم المحفز لهمم البطولة (عالم الصعلكة) . وقد اقترن ظهور صوت العاذلة في النص السابق ، بوقوع الفعل المقتضي للعذل واللوم ؛ وذلك أن الشاعر أحسّ بفداحة جرمه نتيجة انعتاقه عن القبيلة ، مما أتاح لصوت العاذلة أن يعلو، مدركة مواطن الضعف عند الشاعر . كما أن هذا الفعل العذلي يشي بصراع الذات والقلق الذي تعانيه أنا الشاعر، لذا نجده يحرص على درء ذلك الخوف بتقديم المبررات المطمئنة للنفس القلقة وأخذها إلى جو بطولي حافل بالأفعال الخالدة : [٧٤]

وقــدْ صِــحْتُ فــي آثَــارِ حَــوْمٍ كَأَنَّهَــا عَــذَارَى عُقَيْــلٍ أو بَكَــارَةُ حِمْيَــرَا

أُكَفكِــفُ عَــنْهُمْ صُــحْبَتِي وإِخَــالُهُمْ مِــنْ الــذُّلِّ يعْــراً بالتلاعَــةِ أَعْفَــرَا([٧٥])

فالشاعر يربط بين الجود وما يستلزمه من حركة الحياة ، تلك الحياة التي لا تتحقق إلا بالنصر، وانقضاء زمن الحرب ، حين تكتسب الغنائم . كما أن هذا الانتصار هو تحقيق لفردية الصعلوك وتأكيد ذات الشاعر ومحوريتها أمام قومه ، فهي ذات قيادية ، (أكفكف عنهم صحبتي) الشاعر هو الآمر الناهي والمانح للحياة - حين يعفو عن الأسرى – ، هكذا يصل الشاعر إلى أعلى غاياته ، فيخبو صوت العاذلة ويتضاءل فعلها العذلي .

وإذا كانت المرأة تدّعي الخوف وتمارس سلطة العذل واللوم على الشاعر الصعلوك لثنيه عن الصعلكة ، فإننا نجد الزوجة عند عروة بن الورد تتحول إلى عاذلة غير مألوفة ، تعنّفه على القعود مع العيال وتحثه على الإقدام والتصعلك لتأمين الحياة الكريمة [٧٦] :

قالــتْ تُماضِــرُ، إذ رأتْ مــالي خــوى وجفــا الأقــاربُ، فــالفؤاد قــريحُ

مــالي رأَيتُــكَ فــي النّــديِّ منكَّســا وَصِــباً، كأنَّــك فــي النَّــديِّ نَطِــيحُ

خــاطِرْ بِنفسِــك كــي تُصــيبَ غنيمــةً إنَّ القُعــودَ، مــع العيــالِ ، قبــيحُ

المــالُ فيــه مَهابــةٌ وتَجِلَّــةٌ والفقــرُ فيــه مذلَّــةٌ وفُضُــوحُ

---

[٧٤] الديوان، ص ١٠٠ .

([٧٥]) الحوم: القطيع من الأبل أوالبقر،اليعر:الجدي الذي يُربط بحفرة للصيد ،التلاعة :ماء تشرب منه بنو كنانة.

[٧٦] الديوان ، ص ٢٤ .

في هذه الأبيات نجد الصوت الأنثوي يتجاوب مع صوت الصعلوك في استنهاض عزيمة الشاعر وتحفيز همته في البحث عن أسباب الحياة الكريمة والمتحققة في الخروج للغزو والحصول على الغنائم . ولاشك بأن إحساس الشاعر بأهمية ما ينتهجه من سبل في كسب المال والخوف على نفاده ؛ هو الذي خلق بداخله هذا الصراع . وبذلك نجد أننا في هذا النص الشعري أمام عاذلة انفردت عن غيرها من النساء العاذلات ؛ حين توافقت تماماً مع مراد الشاعر، فهي لم تقدم على العذل إلا لمعالجة صراع يعانيه الشاعر، مبني على أمرين ، الأول (مالي خوى) والثاني (جفوة الأقارب) ، ولعل هذه فلسفة خاصة ينفرد بها عروة في منطق العلاقات القائم على المادة والمصلحة ،أي أن المال يقرر مدى ارتباط الآخرين به.

وهذه زوجة أبي خراش الهذلي تلومه على جبنه وعدم إقدامه على ممارسة الفعل البطولي في المعارك [٧٧]

فإن تزعمي أني جبنت فإنني أفر وأرمي مرة كل ذلك

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا وأنجو إذا ماخفت بعض المهالك

العاذلة في البيتين السابقين تحث الشاعر على انتهاج الصعلكة ، فهي رفيقة رغباته بل هي صوت التلبية الذاتية المحرض على القتال بشجاعة .

المطلب الثاني-المحبوبة العاذلة

التحدي الأكبر الذي واجه الشعراء الصعاليك في حياتهم ، هو الحصول على الحب ؛ وقد أشبعوا هذه الحاجة عبر المرأة ، حيث وجدوا فيها ما يرضي نزعاتهم ويكمل نقصهم ويحقق رغباتهم . فكانت المرأة المحبوبة هي ملهمة الصعلوك على انعتاق الكلمة العذبة من أعماق الذات البائسة .

هذه محبوبة قيس بن الحدادية تلومه على إفشاء سرها في هواه[٧٨]:

بكتْ من حديث بثه وأشاعه ورصفه واش من القوم راصع

بكت عين من أباك لا يعرف البكا ولا تتخالجك الأمور النوازعُ

فلا يسمعن سري وسرك ثالثاً ألا كل سر جاوزَ اثنين شائع

وكيف يشيع السر مني ودونه حجاب ومن دون الحجاب الأضالعُ

فالشاعر يؤكد لمحبوبته حرصه عليها وعلى سمعتها، فكيف يذيع سر هواها إذا كان محفوظاً بين الأضالع.

---

(٧٧) شرح أشعار الهذليين ، المجلد ٢ ، ص ١٦٩

(٧٨) الأغاني، جزء١٤، ص١٤٨.

يقول مالك بن الريب[٧٩]:

وقد تقول وما تخفي لجاراتها إني أرى مالك بن الريب نحلا

من يشهد الحرب يصلياها ويسعرها تراه مما كسته شاحباً وجلا

نجد فعل العذل مبطناً بشكوى وضجر تبثه محبوبة مالك لجاراتها. وحقيقة اللوم للشاعر على نحوله وتغير ملامحه. يشير الشاعر في البيت الثاني إلى السبب الوجيه في التغيّر الذي حل به هو الفعل البطولي المتمثل في خوض الحروب. فالحرب عند الصعلوك تتجاوز مفهومها التدميري لتصبح غاية يسعى إليها في الحصول على مطالبه. لذا يلجأ مالك في رده على محبوبته إلى زمن المضارع (يشهد، يصلاها، يسعرها) وكأنه يبرر تغير ملامحه مع إصراره على استمرارية ذلك الفعل البطولي ولن تثني تلك العاذلة عزيمته.

وتصر تلك العاذلة عند توبة بن الحمير على فكرة العذل المرتبطة بتغير ملامحه، فهو أشعث أغبر[٨٠]:

وقالت أراك اليومَ أسْودَ شاحباً وأنّى بياضُ الوجهِ حرَّ حَرورُهَا

وغَيّرني إنْ كنتِ لمَا تَغيِّرِي هواجرُ تكْتَنِّيهَا وأسيرُها

إذا كانَ يومٌ ذو سمُومٍ أسيرُهُ وتُقصَرُ من دونِ السَّمُومِ سُتورُها

فالشاعر يجد في الفعل البطولي مبرراً للتغير الذي حل به فهو كثير التنقل والأسفار لا يعرف الاستقرار، يسير في الهواجر غير مبالٍ بلهيبها وهذه آثارها على ملامحه وخاصة لونه الأسود، فالصحراء وطن الصعلوك الفعلي هي الشاهد على ولادة روحية جديدة لهذا الصعلوك المنبوذ، والملاذ لأولئك المخلوعين من أرض مولدهم. عبر امتدادها وتحت لهيبها مارس الصعلوك سلطته وأنجز مهماته وخلد مآثره. فلا عجب أن نلمس شدة التصاقه بها وأثرها على ملامحه.

كما يتجلّى لنا في نصوص الصعاليك ، صورة المحبوبة العاتبة ، يستحضرها السليك في قوله [٨١] :

أَلَا عَتَبَتْ عَلَيَّ، فصارَمَتنِي وأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمَ الطِوالِ

فَإنِّي، يَابنةَ الأقوامِ، أُربي على فِعلِ الوَضيِّ من الرجالِ[٨٢]

يقدّم الشاعر صورة المرأة التي تتخذ من فعل العتاب وسيلة للتخلص من الشاعر ، مظهرة رغبتها في القطيعة والتحول إلى علاقة بديلة ، تفضلها المرأة حسب رؤيتهاالأنثوية ، والمنطوية على معايير شكلية

---

[٧٩] مالك بن الريب، حياته وشعره. تحقيق: نوري حموي القيسي (مجلة معهد المخطوطات العربية)، مج ١٥، ج١ ، ص ، ص٨٢.

[٨٠] منتهى الطلب، مجلد١،ص٢٢٦-٢٢٧.

[٨١] الديوان ، ص ٨٧.

[٨٢] ذوو اللمم الطوال : المراهقون الذين يتركون شعرهم يطول ، أربي : أزيد بفعلي ، الوضي : الوضئ النظيف الجميل.

خادعة ، تقدم وضاءة البشرة على وضاءة الأفعال العظيمة التي يضطلع بفعلها الصعلوك ؛ وإن كان أسود اللون وغير مرغوب شكلاً ، فإنه يربو على الرجال ذوي البشرة البيضاء

كذلك نجد محبوبة قيس بن الحدادية تلومه على فقره[٨٣]:

فجئـــت كـــأني مستضـــيفٌ وســـائل لأخبرهـــا كـــل الـــذي أنـــا صـــانعُ

فقالـــتْ تزحـــزحْ مـــا بنـــا كبـــر حاجـــة إليـــكَ ولا منـــا لفقـــرِكَ راقـــعُ

الفعل (تزحزح) يعني الإبعاد والإقصاء كما ورد في لسان العرب "زحزحه فتزحزح: دفعه ونحاه) [٨٤]، وهذا يعني رفضها التام لفكرة الارتباط بصعلوك فقير مشرد.

وقد تتخطى العاذلة فكرة العذل واللوم إلى التهديد يقول السليك[٨٥]:

تهـــدّدني كـــي أحـــذر العـــام خَثْعمـــا وقـــدْ علمـــتْ أنـــي أمـــرؤٌ غيـــر مســـلّم

ومـــا خـــثعم إلا لثـــامٌ أرقّـــةٌ إلـــى الـــذلِّ فالإســـحاقِ تنْمـــي وتنتمـــي[٨٦]

تلجأ العاذلة إلى لغة التهديد لأنها ترى لغة العذل غير مجدية مع الصعلوك، فهي تهدده بخثعم لتثنيه عن نهجه في التصعلك وما خثعم عند الصعلوك إلا عبيدٌ أذلة فهو لا يخشاهم.

كما أن لغة العذل غير مجدية مع الصعلوك كذلك التهديد والترهيب لم يحدث تغييراً في سلوكه لذا تلجأ العاذلة إلى فكرة البكاء والعويل لأنها عاجزة تماماً عن ردعه. يقول تأبط شراً[٨٧]:

تولـــول ســـعدى أن أتيـــت مجرحـــا إليهـــا وقـــد منـــت علـــيَّ المقاتـــلُ

وكـــائن أتاهـــا هاربـــاً قبـــل هـــذه ومـــن غـــانم أو أيـــن منـــك الـــولاولُ

المطلب الثالث-الابنة العاذلة

ومن العذل الذي ترققه صدق العاطفة والمحبة، عذل الابنة لأبيها. عندما خرج مالك بن الريب مع سعيد بن عثمان، تعلقت به ابنته وهي تبكي وتلومه على طول سفره وترحاله حين عزم الخروج غازياً، فأنشأ يقول وهو يبكي[٨٨] :

---

[٨٣] الأغاني، جزء ١٤، ص١٤٩.

[٨٤] لسان العرب، المجلد الثاني، مادة زحح، ص ٤٦٨.

[٨٥] الأغاني، جزء ٢١، ص ١٨٠-١٨١.

[٨٦] الديوان ، ص ٦٧.

[٨٧] أرقه – عبيد أذلاء، الإسحاق – الذل.

ولقـــد قلـــت لابنتـــي وهـــي تبكـــي بـــدخيل الهمـــوم قلبـــاً كئيبـــا

وهـــي تـــذري مـــن الـــدموع علـــى الخـــدين مـــن لوعـــة الفـــراق غروبـــا

عبـــراتٍ يكـــدن يخـــرجن مـــا جـــز نـــا بـــه أو يـــدعن فيـــه نـــدوبا

حـــذر الحتـــف أن يصـــيب أباهـــا ويلاقـــي فـــي غيـــر أهـــل شـــعوبا

اســـكتي قـــد حـــززت بالـــدمع قلبـــي طالمـــا حـــزّ دمعكـــن القلوبـــا

فعســـى الله أن يـــدافع عنـــي ريـــب مـــا تحـــذرين حتـــى أؤوبـــا

لـــيس شـــيء يشـــاؤه ذو المعـــالي بعزيـــز عليـــه فـــادعي المجيبـــا

ودعـــي أن تقطعـــي الآن قلبـــي أو ترينـــي فـــي رحلتـــي تعـــذيبا

أنـــا فـــي قبضـــة الإلـــه إذا كنـــت بعيـــداً أو كنـــت منـــك قريبـــا

كـــم رأينـــا مـــن امـــرءاً أتـــى مـــن بعيـــد ومقيمـــا علـــى الفراشـــي أصـــيبا

فـــدعيني مـــن انتحابـــك إنـــي لا أبـــالي إذا اعتزمـــت النحيبـــا

حســـبي الله ثـــم قرّبـــت للسيـــ ـــر عـــلاةً أنجـــب بهـــا مركوبـــا

الشاعر يتوجع لتلك العبرات التي تسكبها ابنته خوفاً عليه، فهي تخشى أن يكون هذا اللقاء هو آخر العهد بوالدها، ويبلغ التوجع ذروته حين يحزز بكاؤها قلب أبيها، فيأمرها بالسكوت (اسكتي) مستعيناً في تخفيف حزنها وحزنه باللجوء إلى الله فهو أهل الرحمة وما الموت والحياة إلا بتدبيره، فلعل الموت الذي تخشى منه على والدها في تلك الغزوات يدركه بالفراش، وهنا تتجلى قوة الإيمان بالله عند مالك وهي مفارقة عجيبة بين الصعلوك في العصر الجاهلي وحياته في الإسلام وأثر ذلك التدين في ترقيق طباعه وتعزيز عقيدته في التوكل على الله. يقول حسين عطوان : "ويمكن أن نوزع حياته بعد دور النشأة والتزوج على مرحلتين مختلفتين: مرحلة التصعلك والتلصص ومرحلة التوبة والصلاح والجهاد في سبيل الله] [٨٩]. ومع هذا كله لم تتمكن ابنته من التأثير عليه ولم تثنيه عن مواصلة سيره للغزوات.عذل الابنة لم يكن صوتاً عذلياً محضاً بل كان توجعاً لفراق والدها. وتتكرر صورة الابنة في عتاب يزلزل القلوب عند مالك بن الريب حين تستعطفه ابنته محاولة التأثير عليه لتثنيه عن الخروج للغزوات، فصوت الإلحاح تسكبه مقلاتها وهي تتعلق بثيابه[٩٠]:

---

[٨٨] الديوان، ص ٦٩-٧٠.

[٨٩] عطوان، حسين :الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف بمصر، (د.ت)، ص ١٥٨.

[٩٠] الديوان، ص٨٩-٩٠.

تقـول ابنتـي لمـا رأت طـول رحلتـي سـفارك هـذا تـاركي لا أبـا ليـا

لعمـري لـئن غالـت فرسـان هـامتي لقـد كنـت عـن بـابي خرسـان نائيـا

فـإن أنـج مـن بـابي خرسـان لا أعـد إليهـا وإن منيتمـوني الأمانيـا

فللـه دري يـوم أتـرك طائعـاً بنـي بـأعلى الـرقمتين ومالياً

وقد يقع العذل من قبل امرأة قريبة خارج التصنيف المذكور سابقاً عند نساء الصعاليك ، كالأم مثلاً يقول مالك بن الريب[٩١]:

تُسـائل شـهلةُ قفّالهـا وتسـأل عـن مالـك مـا فعـل

تـرى مالـك بـبلاد العـدو وتسـفى عليـه ريـاح الشـمل

لـذلك شـهلة جهزتنـي وقـد حـان دون الإيـاب الأجـل

وشهلة هي أم مالك بن الريب كما ذكر القالي[٩٢] .

وهذه زوجة عروة بن مرّة تلوم أبا خراش الهذلي؛ لأنه لم يدرك ثأر زوجها[٩٣]:

لعمـري لقـد راعـت أميمـة طلعتـي وإن ثـوائي عنـدها لقليـلُ

وقالـت أراه بعـد عـروة لاهيـاً وذلـك رزءً لـو علمـتِ جليـلُ

فـلا تحسـبي أنـي تناسـيت عهـده ولكـن صـبري يـا أُمـيمَ جميـلُ

وإنـي إذا مـا الصـبح آنسـت ضـوءه يعـاودني قطـعٌ علـيَّ ثقيـلُ

الخاتمة

تتجلى قيمة هذا البحث بقدر ماتم استيعابه من تلك النصوص ، جعلنا نشعر بالفن الشعري وانفعالات الذات الشاعرة ، وبالتالي نعبر إلى أعماقها ، ونعيش الموقف بصوره المختلفة ، وفق تفسيراتنا المتعددة .

---

(٩١) الديوان، ص٥٣.

(٩٢) ذيل الأمالي والنوادر: أبو علي القاسم القالي، دار الكتب والوثائق القومية ط٤ ؛ ص١٣٥.

(٩٣) الأغاني، جزء ٢١، ص ٢٤٧.

فهذه التجربة العذلية التي مر بها الصعلوك أمامنا تولّدت مع كل صوت أنثوي ، وأحاطتنا بقدرة على استيعاب النص وتأويله .فكانت النتائج كالآتي :

-حضور العاذلة في شعر الصعاليك ليس حضورا حقيقيا محضا؛ بل كان مفتعلا لاستجلاء كوامن الذات ومكنوناتها. وبذلك فإن النص العذلي عند الصعاليك يعد إطارا لتفريغ الدلالات الرمزية ، و مجالا خصبا للدراسات النقدية.

-المرأة العاذلة في شعر الصعاليك ذات حضور متناقض ؛ حين نجدها عاذلة مرهقة تخشى عليه الموت ،وتلومه على انتهاج الصعلكة . تتبدى حينا آخر في صورة مضادة للمألوف ؛ عاذلة متجاوبة مع ذات الصعلوك ، ومنساقة لرغباته في التصعلك ، تلومه على على قعوده وتراخيه !. هذا التناقض يشي بحقيقة الصراع الذي يعانيه الصعلوك بين مايوده وما يخشاه.

- حظيت العاذلة الزوج بنصيب وافر من عناية عروة بن الورد ، فتجلت في قصائده : موقدة لثورته ومثيرة لأشجانه ؛ معلنة عبر حضورها عن قلقه المستمر تجاه الصعلكة.

- قدمت نصوص الصعاليك العذلية صورة جلية عن بطولاتهم .

- أدارت المرأة العاذلة دفة الحوار ؛ لذا يمكننا القول : أن النصوص العذلية نصوص حوارية .

أولا / المصادر

-القرآن الكريم.
-بغدادي، محمد بن المبارك: منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح: محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط١٩٩٩،١ ، تسعة مجلدات.
-تأبط شرا : الديوان، جمعه وحققه وشرحه علي ذو الفقار شاكر،دار الغرب الإسلامي،ط١٩٨٤،١.

-السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين : شرح أشعار الهذليين ، حققه : عبدالستار أحمد فراج ، راجعه محمود شاكر ، مكتبة العروبة ، مصر ، عدد المجلدات ٣ ، ١٩٦٥
-السليك بن السلكة : الديوان ، تحقيق د. سعدي الضنادي، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤م.
-الشنفرى،الديوان : جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي ،بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
-الأصفهاني، أبو الفرج : الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ط٨، ١٩٩، ج١٤.
-الأصمعي : الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، دار المعارف، ط٤
-عروة بن الورد : الديوان ، تحقيق : كرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت (د ـ ت)
-أبو علي القاسم القالي: ذيل الأمالي والنوادر ، دار الكتب والوثائق القومية ط٤ .

-ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، الدار العربية للكتاب، ط٣، ١٩٨٣م.
-المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٥، (د.ت)،
-ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:لسان العرب،دار صادر ، بيروت .
-مالك بن الريب، حياته وشعره. تحقيق: نوري حموي القيسي (مجلة معهد المخطوطات العربية)، مج ١٥، ج١ .

ثانيا/ المراجع
-خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ،دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت).
-زمزمي ، يحيى : الحوار وآدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، دار التراث والتربية ، ط١ ، ١٤١٤هـ .
- عبدالسلام، فاتح: الحوار القصصي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
-عطوان، حسين :الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف بمصر، (د.ت).

-العنزي ، صغير غريب : رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ١٤٣٢هـ .

-عيد ، رجاء : لغة الشعر – قراءة في الشعر العربي المعاصر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ٢٠٠٣، ، ط١.
-فرحات ،أسامة: المونولوج بين الدراما والشعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ت).
-يوسف، حسني عبد الجليل: عالم المرأة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ٢٠٠٧، ط١.
-يونغ : جدلية الأنا واللاوعي ، ترجمة: نبيل محسن ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ١٩٩٧.

ثالثا/البحوث والدوريات

- السنجلاوي ، إبراهيم : العاذلة في الشعر الجاهلي ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، مجلد ٧ ، العدد ٢٨ ،١٩٨٧ .

-عبد الكريم يعقوب ، أمية موسى : المرأة الزوج في أشعار الصعاليك الجاهليين ، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، سوريا ، العدد ١ ، ١٤١١ .

-عثمان ، عبد المنعم علي : الصورة الشعرية في شعر الصعاليك ودورها في الكشف عن الجوانب النفسية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مصر، العدد ١١، ٢٠٠١.

- عليمات ، يوسف محمود : صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، مجلة العلوم الإنسانية ، كلية الآداب ، جامعة البحرين، العدد ١٤، ٢٠٠٧.